الشرقي في المنظور الغربي(قراءة في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمان منيف)

the eastern in the western perspective (reading in the trilogy of the land of blackness by abd al-rahman munif)

د-عائشة عبيد [1،*].

[1]جامعة قسنطينة 1، (الجزائر)، abiaicha94@gmail.com

مخبر الدراسات التراثية، جامعة الإخوة منتوري- قسنطينة 1

تاريخ الإيداع: 2021/09/01 **تاريخ المراجعة**: 2021/12/13 **تاريخ النشر**: 2022/03/30

ملخص:

تعد مسألة الصراع الحضاري بين الشرق والغرب قضية قديمة و معقدة، بل إنها من أكثر المسائل تعقيدا و إثارة للجدل عند العديد من الدارسين في مختلف المجالات. ويعد عبد الرحمان منيف من أهم الأدباء الذين اهتموا بهذه القضية من خلال إبداعاته،التي جعلها محورا أساسيا للكشف عن علاقة الشرق بالغرب، أو بالأحرى علاقة الأنا بالآخر. وهذا ما نجده في ثلاثيته أرض السواد خاصة. فكيف صور لنا منيف علاقة الغربي بالشرقي من خلال هذا العمل؟ وما هي نظرة الغربي للشرقي عموما- حسب رأيه-؟ هذا ما تهدف هذه الدراسة للإجابة عنه، من خلال اتباع آلية التحليل.

الكلمات المفتاحية: الأنا، الآخر، الشرق، الغرب، الصراع، أرض السواد.

Abstract:

The issue of the civilizational conflict between East and West is an old and complex issue, but rather one of the most complex and controversial issues for many scholars in various fields. Abd al-Rahman Munif is considered one of the most important writers who paid attention to this issue through his creations, which made it an essential focus for revealing the relationship of the East to the West, or rather the relationship of the ego to the other. This is what we find in his trilogy, the land of blackness in particular. How did Munif portray the relationship between the Western and the Eastern through this work? What is the Western view of the Eastern in general - according to his opinion -? This is what this study aims to answer, by following the analysis mechanism.

***Key words**: The ego, the other, the east, the west, the conflict, the land of blackness.*

* المؤلف المراسل.

أولا- تقديم:

ظهرت مسألة الصراع الحضاري بين الشرق والغرب منذ القدم، وشغلت الدارسين بمختلف مجالاتهم و تخصصاتهم، بل وفرقت آراءهم بخصوصها؛ فهناك من يرى أن هذه العلاقة علاقة إيجابية تكاملية خادمة للبشرية من خلال حوار الحضارات والانفتاح على الآخر، وهناك من يرى أنها علاقة عداء، ومحاولة غربية دائمة للاستعلاء على حضارة الشرق وطمسها.و لم يكن الأدب العربي بمنأى عن هذا الاهتمام وهذه الدراسة، وهذا ما ظهر جليا في جنس الرواية " فقد خاضت بواكير التأليف في الأدب العربي الحديث في هذه القضية الهامة والخطيرة فمنذ أن كتب رفاعة الطهطاوي كتابه تخليص الإبريز في تلخيص باريز سنة1834م، ثم كتب علي مبارك رحلة الشيخ علم الدين سنة 1882م،وكتب بعده أحمد فارس الشدياق الساق على الساق في ما هو الفرياق سنة 1887م، ثم محمد المويلحي حديث عيسى بن هشام سنة 1905م الذي ألمح إلى هذه القضية الحساسة، تزايد الإقبال الروائي على تصوير هذا الصراع واللقاء بين الشرق والغرب، فكتب توفيق الحكيم عصفور من الشرق سنة 1938م، وكتب طه حسين أديب، وكتب يحيى حقي قنديل أم هاشم 1944م، وسهيل إدريس الحي اللاتيني سنة 1954م، والطيب صالح موسم الهجرة إلى الشمال سنة 1966م ... وغيرهم. واستمر النهر المتدفق جاريا في صلب الإبداعات الروائية العربية، ليلحق بالركب بعد ذلك جيل آخر من الرواة المبدعين الذين حاولوا أن يجسدوا صراع القيم المتناقضة بين الشرق بعاداته الموروثة وقيمه المعروفة، والغرب بحضارته الطاغية ومدنيته الصاخبة"[1]. واستمر هذا التدفق الروائي مع الكاتب السعودي عبد الرحمان منيف الذي خصص أعماله تقريبا للحديث عن هذه المسألة. ومن بين هذه الأعمال رواية أرض السواد، التي تهدف هذه الدراسة إلى محاولة فهم طبيعة علاقة الأنا بالآخر عن طريق تحليلها، واستخراج نظرة الغربي للشرقي التي صورها الأديب من خلالها، وذلك بالإجابة عن التساؤلات التالية: كيف كانت العلاقة بين الآخر- الغربي- والأنا الشرقية في هذه الرواية؟ وهل وفق منيف في إيصال أفكاره للقارئ بدقة في هذا العمل؟ وهل أثْرت هذه الثلاثية قضية الصورة في الأدب؟ وستعتمد هذه الدراسة على آلية التحليل للوصول إلى النتائج المرجوة.

ثانيا: ثنائية الشرق والغرب، وصراع الأنا والآخر:

1 – ماهية الأنا:

عند البحث في مختلف القواميس العربية "نجد "أنا" ترتبط صرفيا بضمير المتكلم المنفصل وهو بالمقابل je بالفرنسية و I بالانجليزية، مايحيلنا إلى البحث في بعدها الفلسفي؛ فالأنا فلسفيا يشار إليها بالفرنسية ego وهو مفهوم يدل على ذات الأفعال المتعمدة، أي الأفعال التي تأخذها الشخصية بالحسبان وتتحمل مسؤوليتها"[2] ، إلا أنا مصطلح الأنا يتخذ معاني كثيرة ومختلفة – خاصة عند علماء النفس- وهذا مايتجلى عند سيغموند فرويدSigmund Freud الذي يرى أن النفس البشرية هي الأنا، "و الأنا هي الذات، والذات هي كل ماتشتمل عليه هذه الذات من خصائص وسمات نفسية وعقلية أو مزاجية، ودفاعية، من أفكار وطموحات، وصراعات أو توترات، وحاجات فيزيولوجية، وحاجات نفسية، كالحاجة للحب،والانتماء أو الأمن، وتحقيق الذات، وغيرها من الحاجات والدوافع. ولقد اختلفت تفسيرات الأنا بين الباحثين، فبينما يرى فرويد، أنها خصائص النفس البشرية فالأنا هي مركز الشعور عند يونج، وهي أحد النماذج الأصلية الكبرى للشخصية... وقد عرف جيمس James الأنا بأنها ذلك التيار من التفكير الذي يكون إحساس المرء بهويته الشخصية"[3]، فالأنا عند

علماء النفس عموما هي الصفات التي تميز شخصية معينة، فتجعلها تشكل هوية خاصة بها، ضمن مجتمع تنتمي إليه.

2 - ماهية الآخر:

عند سماع لفظ الأنا ومحاولة فهمه فإن أول ما يتبادر للذهن مباشرة هو مصطلح "الآخر"، أو كما يقال بالأضداد تتضح المعاني؛ فإذا" حاولنا أن نعرف ما هو الآخر فيجب أن ندرك أولا أن هناك تلازما بين مفهوم صورة الذات ومفهوم صورة الآخر، واستخدام أي منهما يستدعي تلقائيا حضور الآخر. ويبدو أن هذا التلازم على المستوى المفاهيمي هو تعبير عن طبيعة الآلية التي يتم وفقا لها تشكل كل منها، فصورتنا عن ذاتنا لا تتكون بمعزل عن صورة الآخر لدينا، كما أن كل صورة للآخر تعكس بمعنى ما صورة الذات، وهذا التلازم بين الصورتين قد أبرزته أعمال العلماء النفسيين والاجتماعيين الذين اهتموا بالقضايا المتصلة بالذات و الآخر، حيث طور جيمس مارك بالدوينJ.M.Baldwin بعد ذلك رؤية تفاعلية اهتم فيها بعلاقة الذات بالآخر، حيث شدد على أن الأنا و الآخر مولودان معا."[4]، أي أنهما وجهان لعملة واحدة، أو بالأحرى فهما مصطلحان متلازمان، وكل منهما مرآة للآخر.

و"يعرف الآخر بالفرنسية Autre ...، وبتلخيص لمفكرين غربيين فرنسيين تحديدا مثل سارتر، فوكو وجاك لاكان فإن الآخر في أكثر معانيه شيوعا يدل على شخص آخر أو مجموعة مختلفة من البشر ذات هوية مشتركة، وبالمقارنة مع ذلك الشخص أو المجموعة يتحدد الاختلاف معه"[5]، أي أن الآخر هو من يختلف عن الذات، سواء أكان ذلك فردا أو جماعة، ولعل أبلغ تعبير أو تعريف له هو أن" الآخر ليس نحن"[6]، وهو الذي يختلف عنا في عاداته وتقاليده وهويته بمختلف مكوناتها.

و تختلف علاقة الأنا بالآخر حسب الظروف، ويعود هذا إلى عوامل كثيرة،" فالآخر غالبا ما يخضع للتشويه من قبل الأنا، و إن هذا التشويه يختلف في زمن السلم عنه في زمن الحرب... وبالتالي فإن الآخر عندما يكون عدوا، فإنه يصبح دائما قوة من قوى الظلام والسديم، وفي ظروف تكون عادية أكثر أو أقل تشاحنا، فإن الآخر أي الصورة المسقطة عنه، ينزع إلى أن يكشف لنا عن أنفسنا... ويدرك الآخر بطريقة كونية شبه مطلقة على أنه خطر كامن ومهدد، وقد يصبح على وجه الاحتمال جذابا، على الرغم من اختلافه، أو بالأحرى بسبب هذا الاختلاف نفسه"[7]، أي أن نظرتنا للآخر تكون مرهونة بعلاقتنا به، فإذا كانت هذه الأخيرة علاقة صدامية، فالآخر بالضرورة هو الشر وهو الجانب السيئ للبشرية، وهذا ما نراه مثلا في الصراع العربي مع إسرائيل. وقد يكون الآخر هو الجمال والحضارة على الرغم من اختلافه معنا، وهذا في حالة السلم. فالحكم على الآخر هنا يكون حسب توجه مجتمع الذات؛ فمن يكون لك سيئا وشريرا، ربما يكون جيدا وصديقا لغيرك. بل وقد تتشكل صورة الآخر من حكم سابق عليه jugement précédent، دون محاولة فهم حقيقته بطريقة منطقية. وهنا "يجب الإشارة إلى أمرين: أولهما هو أن صورة الذات وصورة الآخر قابلتان للتغيير والتعديل، رغم ما قد يبدو عليهما من ثبات وإستاتيكة. و الأمر الثاني هو أن ما يتشكل لدينا من صور لذاتنا وللآخرين لا تكون دائما و في جميع الحالات نقية ومحددة، بل غالبا ما يختلط فيها الواقعي بالمثالي، ويتداخل فيها الداخلي- أي رؤيتنا لحقيقة أنفسنا- بالخارجي ... وقد تتشكل صورة الآخر لدينا من عناصر انتقائية هي ما نريد أن نثبته في أذهاننا عن هذا الآخر، في

حين تغيب عنها عناصر أخرى لا نراها أو لا نريد رؤيتها أو الاعتراف بها "[8]، فالتعامل مع صورة الآخر غير ثابت، وهو مرهون بالأوضاع والظروف والذات البشرية في حد ذاتها، بما تحمله من قيم و أفكار ، وانتماء لهوية معينة.

3 - ثنائية الشرق والغرب:

إذا أردنا التطرق إلى موضوع الأنا والآخر في الأدب نجد أن المصطلحين" يحيلان في نصوص عربية كثيرة إلى إشكالية اللقاء بين الشرق والغرب"[9] ، فالأنا هو الشرقي أما الآخر فهو الغربي الأجنبي، والحقيقة أن تحديد مفهوم للمصطلحين صعب نوعا ما؛ فعلى أي أساس صنفت الأمم شرقية أو غربية، وهنا نجد أن هناك " من أرجع الفرق بينهما إلى المعنى الجغرافي، فحددوا الشرق بأنه ما كان شرقي البحر الأبيض المتوسط وامتداده شمالا وجنوبا فيشمل ذلك الهند والصين واليابان والاتحاد السوفياتي و إيران و العالم العربي بأجمعه بما فيه مصر، كما يشمل أستراليا. ويشمل الغرب أوروبا و أمريكا. ولكن هذا التحديد الجغرافي عليه اعتراضات كثيرة، أهمها أن في أوروبا ما يعد شرقيا كجزء كبير من تركيا، وفي الشرق ما يعد غربيا كإفريقيا الجنوبية وأستراليا، ولذلك ذهب بعضهم إلى عدم الاتجاه إلى التحديد الجغرافي، واتجهوا إلى التحديد بالخصائص؛ فالغرب يختص بالتقدم الميكانيكي والحركات الصناعية والديمقراطية، وتلوين أدبه وفنه بلون خاص، وتقدير النساء ومنحهن الكثير من الحرية. والشرق يتصف بالتواكل والخضوع للاستبداد والمساومة في المعاملة، والتقليل من حريات النساء، وكثرة الاعتقاد بالخرافات ونحو ذلك، وحينئذ إذا جرينا على هذا لم يعد للحدود الجغرافية قيمة"[10]، فتفرقة الشرق عن الغرب في البداية كانت حسب الموقع الجغرافي، ثم أصبحت تخضع فيما بعد لخصائص معينة حتى نقول هذا شرقي وهذا غربي. و" لعبت المرويات الكبرى، والاستشراق، والإيديولوجيات أشواطا كبيرة في تشكيل المفهومين فأصبحا:

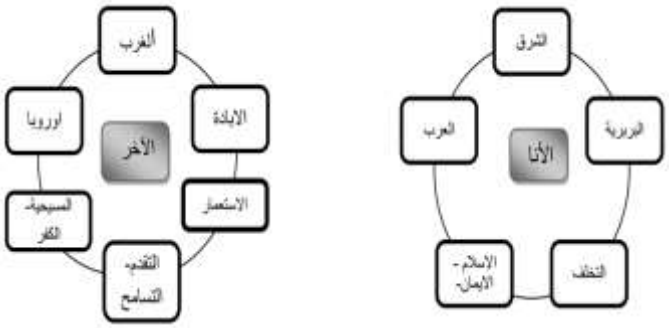

11"

وعلى هذا الأساس وهذا التقسيم الخاضع لإيديولوجيات معينة تشكلت صورة معينة لكل منهما عن الآخر- هذا ما يوضحه المخطط السابق-، وبالتالي فالعلاقة بين الشرقي والغربي متغيرة حسب تغير الصورة من هنا فاللقاء "بين الشرق والغرب تولد عنه ثلاثة أنماط للعلاقة؛ العلاقة الأولى علاقة سيطرة واستغلال، والثانية علاقة رفض متبادل، والثالثة علاقة قبول مجزوء، حيث تتشكل العلاقة الأولى من عقدة الانبهار بالآخر ترافقها عقدة الإحساس بالدونية من قبل الأنا، لينفتح أحدهما على الآخر بمركبين متضادين، مركب نقص بالنسبة للأنا – الشرق-، ومركب استعلاء بالنسبة للآخر – الغرب-، مما يجعل الثاني ينظر إلى الأول نظرة استعلائية فوقية، ويمثل البغض والعداء الذي يحمله أحدهما إلى الآخر جوهر العلاقة الثانية، وتظهر في العلاقة الأخيرة نظرة

إعجاب متبادلة في ما يخص بعض الأمور التي تمس جانبا معينا من جوانب حياة الإنسان في كل حضارة"[12]، والمخطط التالي يوضح تغير العلاقة التي تربط بين الأنا و الآخر ، حسب صورة كل منهما عن نظيره:

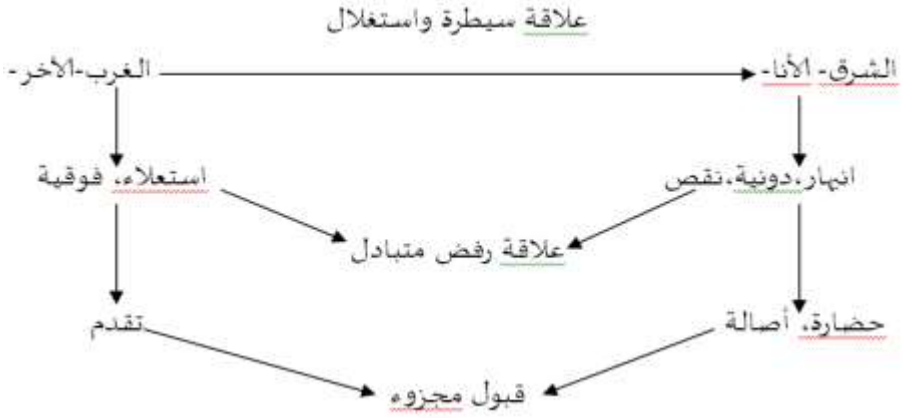

علاقة الأنا الشرقي بالآخر الغربي

ثالثا: الشرقي في المنظور الغربي في ثلاثية أرض السواد لعبد الرحمان منيف:

ظهر في سبعينيات القرن الماضي مصطلح ما بعد الكولونيالية، واستخدم خاصة في مجالات الفكر والثقافة والأدب، وهو مصطلح يعنى بوصف وضع الدول المستقلة بعد تخلصها من الاستعمار، و استخدمه " نقاد الأدب بداية من أواخر السبعينيات لمناقشة الآثار الثقافية المتعددة للاستعمار، ويستخدم ... ليغطي كل مجالات الثقافة المتأثرة ماضيا وحاضرا بالعملية الاستعمارية من اللحظة التي بدأت فيها تلك العملية وحتى الآن، وهذا ما يوحي بوجود استعمار جديد يخالف الاستعمار القديم"[13]، فما بعد الكولونيالية تعني دراسة الآثار المترتبة عن الاستعمار حتى بعد خروجه من مستعمراته، إذ أنه من الملاحظ أن الخطاب ما بعد الكولونيالي العربي " يقوم بصورة عامة على مجموعة من الإشكالات التي تدور حول طبيعة علاقة الشرق بالغرب، وعلى ثنائية الأنا و الآخر... وإشكالية الهوية في مرحلة ما بعد الكولونيالية والصراع الحضاري، سواء أكان قائما على علاقة إيجابية قائمة على التسامح والتعايش و الإنسانية،أم علاقة قائمة على السلبية والنزاع، والنظرة الدونية والكراهية والحقد و الإقصاء"[14] ،و من أكثر الأدباء الذين اهتموا بهذا النوع من الكتابات في إبداعاتهم عبد الرحمان منيف، الذي " أخذ يكشف النقاب عن الصراع التاريخي الجوهري بين الكيان العربي، والقوى الأجنبية الخارجية"[15]، وهذا ما يتجلى في ثلاثيته أرض السواد.

1 – ثلاثية أرض السواد:

ثلاثية أرض السواد عبارة عن رواية طويلة كتبها عبد الرحمان منيف في ثلاثة أجزاء، يحكي فيها عموما عن تاريخ العراق أثناء القرن 19م، و فيها " تجسيد لآخر محطات منيف الروائية عن الصراع الحضاري الأكثر ضراوة واحتداما وعلى جميع المستويات: التاريخية، والسياسية، والاقتصادية والاجتماعية والثقافية"[16]. وقد أهدى هذا العمل إلى أمه إذ يقول:" إلى نورة أمي التي أرضعتني مع الحليب حب العراق"[17]، كما أنه استعمل فيه اللهجة العراقية، وكأنه يحن إلى شيء ما " فكان كأنه يسأل عن طفولة له هنا في البلد الذي لم يعد يراه، فذهب

إليه على بساط من ورق، وطار فوقه بأجنحة من حروف"[18]، وجعل من قلمه وسيلة لتخليد العراق، والتعريف بحضارته وشعبه والدفاع عن قيمه.

يتناول كل جزء من الثلاثية قضية معينة؛ فالجزء الأول يتحدث عن داوود باشا وكيفية وصوله إلى كرسي الولاية، وطموحه لتكوين دولة قوية. وعلاقاته مع مختلف الشخصيات العراقية و الأجنبية، في خضم أعباء الحكم، والصراعات. وهو شخصية محورية ذات تأثير كبير في أحداث الرواية. أما الجزء الثاني فيتحدث عن شخصية بدري الذي نقل الأحداث من السراي إلى كركوك، وهو أحد المقربين من الباشا الذي دفع حياته ثمنا للصراع بين هذا الأخير وعليوي أحد الطامعين في الحكم والساعين للانقلاب على الحاكم، كما أنه جزء مليء بالأحداث والشخصيات المختلفة التي تعطينا صورة عن طبيعة المجتمع العراقي.

ويتحدث الجزء الثالث خاصة عن علاقة الصراع بين القنصل الانجليزي ريتش الخادم لمصالح بلده ولو على حساب الآخرين، و بين داوود باشا الرافض للسيطرة الأجنبية. ويتخلل هذا الجزء من الرواية العديد من الأحداث والصراعات، والمشاحنات والمكائد، ومحاولة كل طرف إثبات نفسه على حساب الآخر، وهو جزء يصور لنا علاقة الأنا بالآخر، ويوضح لنا نظرة الغربي للشرقي من خلال نظرة هذا القنصل للعراق و أهله.

2 - الشرقي والغربي، وصراع الأنا والآخر في ثلاثية أرض السواد:

تعد أرض السواد رواية غنية بالأحداث و الشخصيات التي تحيلنا إلى أفكار ومعاني كثيرة، ورموز تتيح لمن يفككها فهم مقاصد منيف الرامية للتعبير عن الأنا و صراعها مع الآخر، وتبدأ هذه الرمزية من العنوان في حد ذاته؛ "فالسواد في لسان العرب جماعة النخيل والشجر لخضرته واسوداده... كما يمكن لهذا العنوان أن يوحي بدلالة أخرى تحيل إلى علاقة الأرض بالإنسان العراقي الذي ألف السواد مما يوحي للمتلقي بميراث الأحزان الذي خيم على الأنا العراقية بسبب السلطة المستبدة، وأطماع الأجنبي، والطبيعة القاسية- الفيضان-. على الرغم من ذلك استطاعت هذه الأنا أن تشيد أول حضارة على سطح الأرض منذ أكثر من ستة آلاف سنة- الحضارة السومرية-. وقد توحي أرض السواد باهتمام الروائي بمجموعة من الشعب، أي السواد الأعظم منه، الذي يشكل الأنا الجمعية، لذلك تستحق أن يمنحها البطولة"[19]، فالأنا الشرقية عند منيف هي الحضارة، والتحدي رغم الصعوبات. غير أن ما يهمنا في هذه الدراسة هو نظرة الآخر أو نظرة الغربي للشرقي، وتجلت هذه النظرة من خلال شخصية القنصل الانجليزي كلوديوس جيمس ريتش، الذي جاء إلى العراق وهو يطمح للسيطرة على الشرق، و إخضاع الوالي، ومد الهيمنة الانجليزية على هذه المنطقة، و" كان ريتش يتقن اللغات العربية والتركية والفارسية، وذا معرفة واسعة بشؤون المنطقة"[20]، وقد حاول الاحتكاك بأهلها بطرق عديدة وكسب ودهم من خلال التجول في المنطقة،حتى أصبح في كل يوم" تروى قصة أو أكثر عما فعله ريتش و أين ذهب، فوقوفه عند عدد من صيادي السمك، وشراؤه لكل صيدهم دون مساومة، وبالمبلغ الذي حددوه، ثم أن يطلب منهم توزيع السمك على فقراء المدينة قصة تروى!"[21]، ناهيك عن جلوسه في مقهى شعبي، وتحركاته الدائمة الرامية للانغماس في المجتمع العراقي، فهو شخص " تمكن من مفاتيح العقلية الشرقية العربية، فكان الحكام والسلاطين عجينة طيعة في يده يتصرف فيها كما يشاء، ما عدا داوود باشا الذي رفض الانصياع لأوامره، وكان له

ندا شرسا وعنيفا، أطاح بمعظم مخططاته للنيل من الشرق"[22]،فنجده يقول:" القنصل الانجليزي يظن الأمور مثل أيام سعيد يأمر فيطاع. يشاور بإصبعه، فيقول له الكبير و الصغير أمرك سيدي واللي تريده يصير"[23]، وهذا الموقف يصور لنا الأنا الشرقية الرافضة للخنوع.

إلا أن ريتش لم يعدم الوسيلة للوصول إلى غاياته، و أدرك أن الصراع مع داوود باشا ليس بالأمر الهين، ولقد صور لنا منيف نظرة هذا القنصل الانجليزي، للشرقي-شعبا وحاكما- في نقاط عديدة منها:

-يرى ريتش أن الشرقيين أناس يدعون الفهم ولا يمتلكونه، ولهذا هناك طريقة معينة للتعامل معهم، فيقول:"مشكلة هؤلاء الشرقيين أنهم مكابرون. إن المكابرة جزء عضوي من شخصيتهم، إذ يتوهم الواحد منهم أنه يعرف كل شيء، و أنه قوي إلى درجة يمكن أن يواجه أي خصم ويفعل ما يريد... وهز رأسه عدة مرات، كانت هذه الهزات تحمل معنى السخرية و الأسف قبل أن يضيف ، وشخصية من هذا النوع لا تتعلم ولا تروض إلا بطريقة واحدة؛ الضرب على الرأس. فالضرب يعلمها كيف يجب أن تتعامل مع الواقع، كيف يجب أن تنظر إلى الآخرين، و أيضا ما هي قوتها وحقيقتها، فإذا لم يعلمها الضرب كيف يجب أن تكون، فإنه من شأنه أن يكسرها، أن يجعلها صغيرة وذليلة دائما"[24]. فالشرقي هنا في نظره شبيه بالحيوان الذي لا يروض إلا بالضرب، حتى يخضع و يستسلم.

-الشرقي لا يحكم عقله، فيقول:" يجب ألا نتوهم كثيرا يا هايني، فنسحب ما يجري في أوروبا على أماكن أخرى، خاصة على مثل هذه البلاد. فإذا كان العقل هناك سيدا، فالعاطفة هنا هي السيد، وهذا يتطلب أن نكون حازمين"[25]، فالعاطفة ضعف و الإنسان الشرقي ضعيف باعتماده عليها.، بينما المنطق يفرض على الإنسان أن يعتمد على عقله إذا أراد مسايرة ركب التطور في العالم، و يحجز مكانة بين الأمم المتقدمة.

-الشرقيون يعيشون على أمجاد الماضي و لا يسعون إلى التطور، وهذا سر تخلفهم وقدرة الآخرين على السيطرة عليهم، ونجد هذا في قول ريتش:" الشرقيون مغرمون بأمرين: الماضي والكلمات الكبيرة، ثم بالتدريج يصبحون عبيدا لهما... وهذا ما يجعلهم سكارى تائهين، فلا هم في الماضي و لا هم في الحاضر"[26]، فالمجتمع الذي يعيش على الأمجاد وغير القابل للتطور مصيره التخلف، والتقوقع على نفسه، والخضوع للأقوى الذي سيسيطر عليه بالضرورة ويتحكم فيه.

-الشرقيون لا يمتلكون ذوقا في أي شيء، فعطورهم تجلب الغثيان، وطعامهم يسبب الأمراض، وهذا ما يتفق عليه القنصل وطبيبه رايت الذي يقول:" لو قدر لأي خنزير أن يتناول هذه المقادير من الأطعمة، ومن هذا النوع، لقضى قبل طلوع الفجر"[27]، وفي هذا مبالغة تثير الاشمئزاز فكيف لطعام إنسان ألا يتحمله خنزير لشدة سوئه!

-ولعل من أخطر ما قام به القنصل هو الاستيلاء على الآثار العراقية وترحيلها إلى بلده، إذ كان يبعث" بمراسلات حثيثة إلى سفارته في إسطنبول و إلى وزارة الخارجية في لندن، يطلب منهما أن يعطيا لموضوع الآثار أهمية خاصة، وضرورة إيفاد البعثات للبحث والتنقيب"[28]، فهو يعتقد أن الشرقي المتخلف بتفكيره، وغير القابل

للتعلم والتقدم، غير جدير بامتلاك هذه الكنوز، وهذا ما يعد تجاوزاخطيرا على موروثه الثقافي" المتمثل في العادات والتقاليد الشرقية الأصيلة التي تشكل جوهر وروح الحضارة الشرقية ومفخرة العرب، والدعم والسند للعربي لإثبات تفوقه الحضاري في الجانب المعنوي الروحي الذي يفتقده الغرب أمام الحضارة المادية الغربية الباردة، والتي تفتقر إلى دفء العاطفة الروحية"[29]، وبالتالي فشخصية هذا القنصل تمثل الشخصية الغربية الاستعلائية بامتياز، رغم إعجابه بالحضارة الشرقية وعظمتها.

ومن هنا نلاحظ أن العلاقة بين الأنا والآخر في ثلاثية أرض السواد علاقة متوترة و مليئة بالصراع، فالغربي ينظر للشرقي نظرة استعلاء واحتقار، ويسخر من كل مميزات هويته، فما يراه الشرقي ميزة كالكرم والفخر بالماضي، والطعام المتنوع والعادات والتقاليد، يعده هو عيبا وشيئا لا يطاق، ومدعاة للسخرية والأسف، على الرغم من إعجابه بالحضارة الشرقية، والمخطط التالي يوضح نظرة الغربي-الآخر- للشرقي- الأنا- في هذا العمل الروائي:

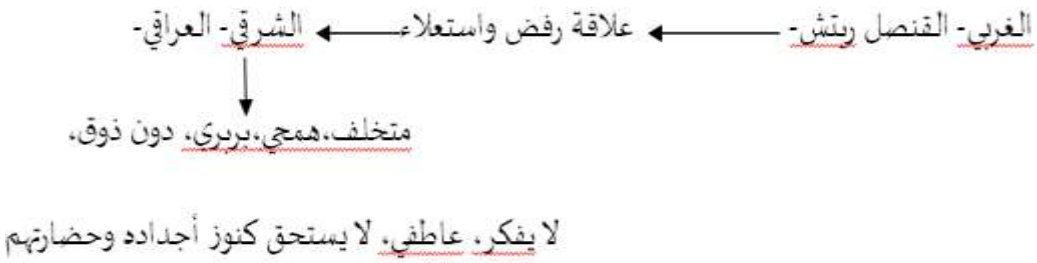

الشرقي في المنظور الغربي في ثلاثية أرض السواد

رابعا: خاتمة:

من خلال ما سبق توصلت الدراسة إلى أن مسألة الأنا و الآخر من أكثر القضايا حساسية، فعلاقة كل منهما بنظيره ترتبط بالصورة التي يكونها عنه، وهذا خاضع لمجموعة من الظروف التاريخية والسياسية والاقتصادية وغيرها، وقد صور عبد الرحمان منيف الأنا في ثلاثيته عن طريق وصف المجتمع العراقي، من خلال إظهار تركيبته البشرية المتمثلة في الشخصيات المتنوعة من رجال الحكم أو من العامة، والتي أتاحت للقارئ التعرف على هذا المجتمع وتكوين صورة خاصة عنه، كما بين نظرة الآخر الغربي من خلال شخصيات أجنبية، أهمها شخصية القنصل الانجليزي ريتش الذي ينظر للشخص الشرقي في هذه الثلاثية نظرة مشحونة بالاستعلاء والفوقية – بالرغم من إعجابه بحضارة الشرق-، من خلال وصفه بأوصاف بشعة، والاستهزاء بعاداته وتقاليده، والاستيلاء على آثاره وموروثه الثقافي، بحجة أنه إنسان متخلف لا يستحقها، ولا يستطيع الحفاظ عليها، فكانت العلاقة في هذا العمل بين الغربي والشرقي علاقة متوترة، ما بين تعجرف الآخر، ومقاومة الأنا للحفاظ على هيبتها وهويتها.

و قد حاول منيف أيضا الدفاع بطريقة غير مباشرة عن الحضارة الشرقية، من خلال وصف شجاعة الوالي، ورفضه الخضوع للأجنبي، كما حاول الدفاع عن التراث من خلال تسليط الضوء على عملية نهبه، وتحويله من وطنه الأصلي إلى آخر لا ينتمي إليه.

هوامش وإحالات المقال

[1] جنات زراد: الصراع الحضاري في روايات عبد الرحمان منيف، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب،جامعة تامنغست العدد 9، ماي 2016، ص 21.

[2] سعيد عادل بهناس: الأنا و الآخر من الذات إلى التفاعل والحوار، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، جامة زيان عاشور- الجلفة، المجلد6، العدد2، 2013، ص 313.

[3] عمرو عبد العلي علام: الأنا و الآخر(الشخصية العربية و الشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، ط1، مصر، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2005، ص 9.

[4] المرجع نفسه، ص 11.

[5] سعيد عادل بهناس: الأنا و الآخر من الذات إلى التفاعل والحوار، ص 317.

[6] المرجع نفسه، ص 318.

[7] عمرو عبد العلي علام: الأنا و الآخر(الشخصية العربية و الشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، ص 13.

[8] المرجع نفسه، ص 15.

[9] مكي سعد الله: الأنا و الآخر في أدب الرحلة (دراسة نقدية مقارنة)، أطروحة دكتوراه علوم في الأدب العربي الحديث، جامعة باتنة 1، 2016م،ص 17 .

[10] أحمد أمين: الشرق والغرب، دط ، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1955م، ص 8،7.

[11]مكي سعد الله: الأنا و الآخر في أدب الرحلة (دراسة نقدية مقارنة)، ص 17.

[12] جنات زراد: الصراع الحضاري في روايات عبد الرحمان منيف، ص 22.

[13] سعاد طويل: الآخر في الرواية الجزائرية ما بعد الكولونيالية، مجلة علوم اللغة و آدابها، جامعة حمة لخضر/ الوادي، المجلد 12، العدد3، 2020، ص290.

[14] المرجع نفسه، ص 292.

[15] جنات زراد: الصراع الحضاري في روايات عبد الرحمان منيف، ص21.

[16] المرجع نفسه، ص 38، بتصرف.

[17] عبد الرحمان منيف: أرض السواد 1، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000، ص 9.

[18] يمنى العيد: عبد الرحمان منيف في أرض السواد من شعراء سومر إلى الولاة الذين أكملوا النشيد، متاح على الشابكة،http://www.mafhoum.com/press7/220C40.htm ، تاريخ النشر2004/12/24، تاريخ الاطلاع 2021/8/12، على الساعة 13:00.

[19] ماجدة حمود: إشكالية الأنا و الآخر(نماذج روائية عربية)، دط ، الكويت، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني لفنون والثقافة و الآداب، مارس 2013، ص133.

[20] جنات زراد: الصراع الحضاري في روايات عبد الرحمان منيف، ص38.

[21] عبد الرحمان منيف: أرض السواد 2، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999، ص 513.

[22] جنات زراد: الصراع الحضاري في روايات عبد الرحمان منيف، ص38.

[23] عبد الرحمان منيف: أرض السواد2، ص521.

[24]عبد الرحمان منيف: أرض السواد1، ص 401،400.

[25]المصدر نفسه، ص 401.

[26] عبد الرحمان منيف: أرض السواد 3، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،2000، ص 204.

[27] عبد الرحمان منيف: أرض السواد1، ص393.

[28] عبد الرحمان منيف: أرض السواد3، ص 21.

[29]جنات زراد: الصراع الحضاري في روايات عبد الرحمان منيف، ص40.

قائمة المصادر و المراجع:

1 - أحمد أمين: الشرق والغرب، دط ، القاهرة، مطبعة لجنة التأليف والترجمة والنشر، 1955.

2 - جنات زراد: الصراع الحضاري في روايات عبد الرحمان منيف، مجلة إشكالات في اللغة و الأدب،جامعة تامنغست العدد 9، ماي 2016.

3 - سعاد طويل: الآخر في الرواية الجزائرية ما بعد الكولونيالية، مجلة علوم اللغة و آدابها، جامعة حمة لخضر/ الوادي، المجلد 12، العدد3، 2020.

4 - سعيد عادل بهناس: الأنا و الآخر من الذات إلى التفاعل والحوار، مجلة تطوير العلوم الاجتماعية، جامة زيان عاشور- الجلفة، المجلد6، العدد2، 2013.

5 - عبد الرحمان منيف: أرض السواد 1، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 2000.

6 - عبد الرحمان منيف: أرض السواد 2، ط1، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر، 1999.

7 - عبد الرحمان منيف: أرض السواد 3، ط2، بيروت، المؤسسة العربية للدراسات والنشر،2000.

8 - عمرو عبد العلي علام: الأنا و الآخر(الشخصية العربية و الشخصية الإسرائيلية في الفكر الإسرائيلي المعاصر)، ط1، مصر، دار العلوم للنشر والتوزيع، 2005.

9 - ماجدة حمود: إشكالية الأنا و الآخر(نماذج روائية عربية)، دط ، الكويت، سلسلة عالم المعرفة المجلس الوطني لفنون والثقافة و الآداب، مارس 2013.

10 - مكي سعد الله: الأنا و الآخر في أدب الرحلة (دراسة نقدية مقارنة)، أطروحة دكتوراه علوم في الأدب العربي الحديث، جامعة باتنة 1، 2016.

11 - يمنى العيد: عبد الرحمان منيف في أرض السواد من شعراء سومر إلى الولاة الذين أكملوا النشيد، متاح على الشابكة،http://www.mafhoum.com/press7/220C40.htm، تاريخ النشر2004/12/24، تاريخ الاطلاع 2021/8/12، على الساعة 13:00.